هنرى هين

ان الادباء والشعراء والفلاسفة لم يخلقوا فقط لصوغ بعض الكلمات الخلابة الجاذبة لقلوب الناس ،نعم ان هذا قد يكون من جهة واحدة ولكنها ليست الا هم بينما العامة تنظر اليها وحدها : فالمهم هو الأعمال التى يأتون بها بازاء كلامهم وحديثهم والنشاط الزائد الذى يظهروانه لتحقيق فكرتهم وغرضهم : إذا شاهدنا أديباً أو شاعراً أو فيلسوفا تكلم هذا من جهته وأنشد ذاك وتفلسف الآخر : ولم يقرنوا قولهم بعلمهم : بل لم يبدون اشتياقا الى العمل قبل أن يكتبوا أو يتكلموا لقلنا : إن هذا الأديب قوال والشاعر ربما غنى ليخمد ناراً فى قلبه قد أخذت فى اللهيب ولوصفنا الفيلسوف بانه رجل سفسطائى ولو اننا استطعنا أن نفحص روح الادباء لرأينا كلا منهم يحمل سيفاً مصقولا هو أحد وامضى من سيف عنترة البتار: وان لم يجد رذيلة يبارزها ذهب يفتش عنها فهم حماة المدنية . المدنية القائمة على الحكمة وفعل الخير

وهين كأصحابه كان حاملا سيفه معه . ولكنه كان لدرجة عظيمة من العز لم ينلها أى سيف آخر حتى طلب أن يوضع فوق مدفنه بعد وفاته بدل طاقة الزهور . وهذا لم يكن الا سيف تحرير الانسانية . «اذ انه من أولئك الجنود البواسل فى حرب تحرير الانسانية »

وكما أن جرمانيا لا تستطيع أن تنسى ذلك النهر الفياض بشهد لذيذ شهي « جيت» كذلك لا تستطيع أن تنسى فرعه الوحيد ـ هين ـ « قد ظهر جيت وحرك الكبش» (جرمانيا) ولكنه لم يستطع أن يجعله منتبهاً تماماً ولم يتم ذلك أى ان تلميذه جاء وأكمل مايجب اتمامه . ولكنه لم يتمكن أيضاً أن يتم العمل النهائى : الا أنه أدى واجبه الى آخر رمق من حياته وكأنه علم بالمثل القائل . على أن أسعى : وهذا هو ماقاله : « أى مارد دعانى لأكتب كتاب الاشعار لاجرر جريدة أن أوذى نفسى فى أوقاتنا وفائدتها : أن اجرب لابنه الكبش الجرمانى فى حجرته من سبات عميق قضى فيه ألف سنة ؟ أى نفع حصلت عليه من كل هذا ؟ إن «الكبش» فتح عينيه فقط ليطبقهما حالا ففارقاه : ليبدأ فى غطيطه ثانية وكان هذا بعد انقضاء دقيقة ولكنه كان غطيطاً أشد وطأة مما سبق وحرك أعضاءه الجامدة الخارقة:

ويلج مرة اخرى فقط و يتمدد فى فراشه القديم الذى اعتاد ان ينام فيها كرجل مائت ليستريح و لكن اين يجد موضعا للراحة ؟ »

وحقا ان هين لم يقو على ان يجد راحة . فهو كان منهمكا ابدا منذ حداثته الى وفاته . احب لما كان صغيرا فاذى قلبه الحب ، حارب عند ما كان رجلا الى ان اصبح عليلا ، كابد أمراضه بينما كان شيخا الى ان داهمه الموت ! فهذا هو هين . وهمه الوحيد كان فى جميع هذه الاطوار التى مرت عليه فى جرمانيا . و لم تكن ارض لتهمه ، لكن الذى اهتم له هو تحريك الشعب لينهض نهضة حقيقية وتكلم عن علاقته بجرمانيا فقال :

ان الامبراطور شارلس الخامس جلس متألما من كثرة الضيق ، فى التيرول ، محاطا باعدائه وقدهجره ابطاله و ندماؤه ولم يأت أحد منهم لمساعدته . انى لا اعلم اذا كان لايزال حاصلا فى ذلك الوقت الحرج على الوجه الحليبى الذى صوره لنا هولين . لكني متأكد بأن وراء شفتيه الاحتقار للانسانية نعم ، كان ظاهراً جلياً اكثر من صورته : كيف يستطيع غير الاحتقار لشعب عند ما كان فى اوج مجده كان يتملق له ويقدسه ، وأما الآن ، فى كربه المظلم ، فقد تركه ذلك الشعب وحيداً ؟ واذا به على حين غرة فتح بابه ، وجاءه رجل مختف ، وعند ما شمر عباءته عن وجهه عرفه القيصر بانه ذلك النسيم الابن كوز ادفون روزين . هذا الرجل جاء لقيصر سلوى وتعزية ، كيف لا وكان نديم قصره !

« آه يا جرمانيا بلاد آبائى ! ياقوم جرمانيا الاعزاء ! انى انا لكم هو ذلك كوزاد فون روزين بعينه : الرجل الذى كانت وظيفته الوحيدة ابهاجكم ، والذى كان فى اوقاتكم السعيدة يتمون فقط لسروركم و يجىء فى وقت ضيقكم عند الحاجة : فهنا تحت عباءتى اقدم لكم صولجان ملككم وتاج جلالتكم ألا تعرفني يا ايها القيصر العظيم ؟ اذا لم يكن باقتدارى ان اجعلك حرا فسأخفف على الاقل عناءك وستكون على الاقل ايضا قد حصلت على رجل يشاطرك احزانك و يتألم معك و يقنعك ان تكون شجاعا ومن الذين يحبونك و هو الذى سيبذل تحت اوامركم احسن تسلية واعز نقطة من دمه لانكم انتم يا ابناء قومى ! انتم هو قيصر الحقيقى المالك الحقيقى لارض الوطن ! ارادتكم هي الحاكمة واكثرها شرعا من ذلك التاج الارجوانى الذى يتوسل الى حق الهى ارادتكم يا ابناء قومى هى المنبع الوحيد للقوة اذا كنتم الآن مطروحين ومقيدين ، فلا تيأسوا ان حقكم الصريح سيكون لكم . ها ان

الخلاص أدنى من قاب قوسين ، اذ ذاك ننتظر ياقيصر ، الليل الدامى قد نقض ! وهناك ينفلق الفجر الوردى .

ايه يا كوزاد فون روزين يا غبى انك على خطأ مبين لعلك تأخذ البلطة الملوثة بالدم فتحسب وميضها اشعة شمس ان هذا الاحمر من الفجر الذى تراه هو دم بعينه .

لا يا قيصر انها الشمس وان كانت قداشرقت علينا من الغرب انها قضت ستة آلاف سنة وهى تشرق من الشرق كغى الوقت جاء ليصير تغييرا

ايه يا كوزاد فون روزين ياأحمق لقد اضعت الاجراس من طربوشك الاحمر وله الآن منظر غريب لذاك طربوشك أحمر

آه ياقيصر إن مصيبتك الدهماء جعلتنى أهز رأسى بشدة وبشراسة حتى ان أجراس المجاذيب وقعت من على طربوشى ولم يكن الطربوش أردأ من حالته هذه .

كوزادفون روزين يامجنون ماهذه الضوضاء التي اسمعها خارجا من تكسير وطقطقه صه ! ان هنا منشارا وفأس نجار وبعد حين ابواب سجنك تنفجر وتبقى مفتوحة وستكون حراً ياقيصر .

« هل أنا هو القيصر الحقيقى ! آه ، لقد نسيت ، أن المجانين هم الذين اخبرونى بذلك!

« أواه ، لاتتحسر ياسيدى العزيز ، أن نسيم سجنك الردىء جعلك هكذا خائر العزم ! عندما ترد حقوقك اليك ، ستشعر مرة أخرى بانتعاش و بسريان الدم الملوكى الجبار فى شرايينك ، وستكون متكبراً كقيصر ، وقاسيا ، ورحيما ، وظالما . وباسم الوجه وناكر المعروف .كحالة الامراء .

« كوزاد فون روزين . يابليد . إذا أصبحت حراً . ماذاستعمل عندئذ ؟

« سأخيط اجراساً جديدة فى طربوشى .

« وكيف اكافىء امانتك لى ؟

« آه . ياسيدى العزيز . لاتدعنى أموت فى خندق . »

لو أن هين لم يكتب عير القطعة التى مرت امامنا لكفي به فخراً عند الجرمانيين . ولو أن هين عاش الى هذا اليوم و رأى فى عينيه كيف ان قيصر لم يبق له أثر وكيف أن الشعب أصبح قيصراً ، وارادته هى الحاكمة ، لقال ، « حاربت وقهرت عدوى » الجهل والاستبداد هما ألدعدائى فلا بأس بى اذا ارتحت الآن

رحمين صيون